ذات الثوب الأرجوانى

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المـازنى

— ١ —

(ملاحظة — الكلام ليس شخصياً وإن كان بلسان المتكلم ، وذات الثوب المذكورة هنا لا وجود لها إلا فى الخيال)

لم يكن الأرجوانى ثوبها الوحيـد — وكيف يمكن أن يكون ؟ — ولا كان كل ما تلبس حين تبرز ، ولـكنه كان أحلى ما تكتسى وأشبهه بخديها — فى رأى العين ، وفى إحساس القلب أيضاً — وقد رأيتها فى ثياب شتى وأردية متنوعة — فى الشفوف والأفواف ، وفى السبائب المضلعة ، والمطارف المربعة ، وفيما عليه من الخطوط كأفاويق السهم ، ومن النقوش كهيئة الطير ، ومن الصور كرسم العيون ، وفى الأبيض والأخضر والأزرق ، ولـكنه لم يقع من نفسى شىء من هذا كله كموقع هذا الثوب الأرجوانى الذى لا نقش فيـه ولا صور ولا ترابيع ولا تداوير ولا تضاليع ولا خطوط ولا وشى ولا نمنمة . ومن العسير أن يعلل المرء هذا الشعور بوقع ثوب معين ؛ وأحسب أنى لو قلت ما يجول فى خاطرى ساعة أراها بادية فيه — أو مجلوة على الأصح — لظننى القارئ عربيداً مستهتكا ، وما أنا من هذا فى قليل ولا كثير . وليصدق القارئ أو لا يصدق ، فما يعنينى ماذا يظن بى . وقديماً قلت — أيام كنت أقول الشعر — :

قد أفعل الشىء لا أبغى به أملا ولا أبالى الورى ماذا يقولونا
همى ضميرى — فان أرضيته فعلى رأى العباد سـلام المستخفينا

وما زلت كما كنت يوم قلت هذا ، بل لعلى أسرفت فى قلة المبالاة ، حتى صرت إلى الاستخفاف المطلق

ولأرجع إلى ذات الثوب الأرجوانى ، فانها أحق بالـكلام وأولى به منى ، وكم قلت لنفسى وأنا أراعيها : « بأى شىء يا ترى يمكن أن تتوسل إلى مثلها ؟ .... لا أنت جميل ولا محتمل .... ولا لك مال ... ولا فى رأسك هذا عقل ... أو ليس لو كنت تعقل أما كنت حرياً بالانصراف عن هذا العبث ؟ .... ماذا ترجو منها ؟ ... فى أى شىء تطمع ؟ ... إنها دونك سناً ، وأنت دونها فى كل شىء ... فلا خير فيك لها أو لمثلها »

ثم أعود فأقول لنفسى : « عن أى شىء تتكلم يا هذا ؟ ... الجمال ؟ .. سبحان الله العظيم ! إن الجمال هو سلاح المرأة ، لحظها منـه ينبغى أن يكون موفوراً ، وإلا زهد فيها الرجال ، إذ كان لا مزية لها غير ذلك ... ولـكن الرجل شىء آخر ، وسلاحه فى الحياة قوته وقدرته على الـكفاح ... لا هذه الأصباغ والألوان التى لا تلبث أن تحول .. فدع الجمال ، فانه شىء يطلب فى المرأة ولا يطلب فى الرجل ... وماذا غيره ؟ ... إنك غير محتمل ؟ ؟ .. لماذا بالله ؟ ؟ لماذا تظلم نفسك وتبخسها هذا البخس ؟ .. ومع ذلك هذا شىء يترك لتقدير الغير ولا يجوز أن تكون أنت الحكم فيه ... يعنى ماذا ؟ ... أترانى أهرب بهذه السفسطة من التقدير ؟ ... لا ... ولـكنى ينقصنى أن أعرف الرجل الذى يستحيل أن يهتدى إلى امرأة تحبه ، مهما بلغ من رأى الرجال فيه أو من سوء رأيه هو فى نفسه ... أو لم تسمع بالمثل القائل : « كل فولة لها كيال ؟ » ، ألسنا نقول ذلك كلما رأينا رجلا ثقيلاً تحبه امرأة جميلة كانت تستطيع أن تجد ألف عاشق لها غير هذا الجلف أو السمج ، أو ما شئت غير ذلك من الأوصاف التى لا تهون على النفس ؟ ومع ذلك هذه مبالغة ، فما أنا بحيث أحتاج إلى التعزى بأن كل فولة لها كيال ... أعوذ بالله ... بقى المـال والعقل ... والـكلام فى هذا كلام فارغ ... فليس من الضرورى أن يكون المرء نداً لروتشيلد لـكى تحبه المرأة مهما بلغ من جمالها . وليت من يدرى بمـاذا فاز روتشيلد من حب الجميلات فى حياته ؟ ومتى كان المـال يشترى الحب ؟ كذلك ليس من الضرورى أن يكون المرء سقراطا أو غيره من أصحاب العقول الضخمة ليكون محبوباً .. ومع ذلك سل سقراط عن تعذيب امرأته له ، وتنغيصها حياته ، وتسويدها عيشه ! ... ماذا ترى نفعه عقله وفلسفته ؟ ... لا يا سيدى ! الحب شىء لا ضابط له إلا تقدير المرأة للرجل الذى تحس بغريزتها أنه أصلح لها من سواه ؛ وقد تكون مخطئة ، ولـكن هذا هو العامل الوجيه لها فى اختيارها ... إذن هناك أمل ؟ ... بالطبع ! ... يا هذه الحمارية ! ... إنها ولا شك عادة التفـكير الطويل فى كل

أمر ... وهى عادة تضعف الثقة بالنفس ، وتفقدها الشجاعة اللازمة للاقدام »

ودارت فى نفسى كلمة الاقدام بعد أن نطقت بها — فى سرى ، وهل أنا مجنون حتى أتكلم بصوت عال يسمعه من فى البيت فتكون النتيجة أن يخربوا بيتى ؟ — فلم يسعنى إلا أن أسأل نفسى : « الاقدام على أى شىء ؟ . . هذه فتاة أراها — وترانى هى أيضاً فما يسعها إلا أن ترى ، أعنى ترانى — ومن طول ما اعتدت أن أراها صرت أحس أنها أصبحت تشغل مكاناً فى نفسى .. مغالطة !!. كأن كل الذنب فى حبها أنى رأيتها مراراً .. ولولا ذلك لما حفلت نفسى بها ! ؟ ! أهذا ما أريد أن أقوله أو أدعيه ؟ ؟ . لا ياسيدى ! . . يحسن ما دمت أناجى نفسى أن أكون صريحاً معها ، وإلا فما الفرق بين نجوى النفس ومحادثة الأغراب ؟ ؟ . وأعود إلى الاقدام . . وأسأل على أى شىء ؟ . . على أى شىء ؟ ؟ أو ليس الامر بديهياً ؟ . تشير اليها . . تظهر لها هذا الحب . . كيف بالله تريد منها أن تعرف أنك تحبها وأنك تروم أن تبادلها هذا الحب ؟ ! « تشم على ظهر يدها » كما يقول المثل العامى ؟ ؟ . حسن . . وصحيح هذا بلا شك ، ولكن ألا يمكن أن تعرف من نظرة العين وحدها ؟ ؟ بلى ! . وإن للمرأة لقدرة على الاحساس بشعور الرجال نحوها ، ولو كان بينهم وبينها ألف سور وسور . . . ما هذه المبالغة ؟ . مبالغة ؟ ! ألم أسأل امرأة هذا السؤال فكان جوابها أنى أكون سائرة فى الطريق فأشعر بنوع النظرة التى يرمينى بها من يتفق أن يكون سائراً خلفى ؟ . فاذا أسقطنا المبالغة من هذا الكلام كان مؤداه أن المرأة يسعها أن تدرك أنحبها أولا تحبها من نظرة عينك ؟ . بل هذا يسع أى انسان لا المرأة وحدها . . . ولكن إذا اكتفينا بالنظر ودلالته ، فماذا يكون بعد ذلك ؟ ! هل تروم منها أن تبدأك هى بالكلام وتقول لك : « ياسيدى إنى أعرف أنك تحبنى فانا أشكرك على تشريفى بهذا الحب الذى لا أستحقه ، وأؤكد لك أنى لست أهلاً لحب رجل عظيم مثلك ؟ سبحان الله العظيم . . ما هذا البرود ؟ . إن الرجل حين يحب امرأة يكون معنى هذا أنه يريد أن يستولى عليها — هذا إذا كان رجلاً عادياً سليماً لا مريضاً — والرغبة فى الاستيلاء تجعل من واجبه هو أن يسعى للتغلب على ما عسى أن يكون هناك من مقاومة ، وليس ثم فرق بين غزو قلب وغزو مدينة ؛ والحقيقة الجوهرية فى كلتا الحالتين واحدة ، وإن اختلفت المظاهر ؛ وكما أن هناك مدناً لا يكاد الجيش يزحف عليها حتى تسرع الى التسليم ، كذلك تجد قلوباً لا تكاد العين تفوق اليها سهما حتى تذعن وتفتح بابه . غير أن هناك قلوباً لا يسهل إخضاعها ولا بد من الكرّ عليها ، وليست كل امرأة ككل امرأة ، فالذى يجدى مع هذه قد لا يجدى مع تلك لتفاوت الأمزجة واختلاف الطباع ؛ وما أظن صاحبتنا ذات الثوب الارجوانى بالعسيرة ، وإن لى لعواناً عليها من شبابها وغرارتها ومن حياة العزلة والحرمان التى تحياها . والشباب هو زمن الفورة والاضطرام فى العواطف ، والحرمان والعزلة يجعلان العواطف الطبيعية أشد استعداداً للاضطرام السريع والتسعر لأقل اتصال . وهل طبيعى ألا تعرف الحياة فتاة فى عنفوان صباها إلا من النافذة وإلا من كتاب — أو رواية — تقرأه وهى فى الشرفة ؟ . ماذا تعرف هذه عن الحياة ؟ . وماذا خبرت من أحوال الناس وأساليبهم ؟ . كيف تستطيع أن تقاوم ما تهدد به ؟ بل كيف تعرف أنها مهددة بشىء حتى تفكر فى المقاومة ؟ ؟ . هذه هى فى الشرفة واقفة تنظر من هذا الارتفاع الذى لا يمكن أن تستبين منه شيئاً . . . لماذا تلبس هذا الثوب الارجوانى الأنيق الذى يبدى للعين خطوط جسمها جميعاً وانحناءاته كلها ويجلو مفاتنها ولا يحجب شيئاً منها ؟ . . أليست تلبسه لتبدو فيه كأجمل ما تكون وفى أفتن صورة ؟ . . تعرض محاسنها هذا العرض البديع ولا تجد فى مكانها العالى هذا من يقدرها ! ! . والناس لا يشعرون بالحرمان منها لأن غيرها فى الدنيا كثيرات . . . ولكن هى . . . هى . . . أليس المعقول — وهى تنظر إلى الرائحين والرائحات والغادين والغاديات — أن تشعر شعوراً حاداً بما هو مكتوب عليها من الحرمان ؟ . . ومع هذا الشعور المستمر ماذا تقدر أن تكون النتيجة إذا اتفق أن اتصلت أسبابها أو هى اتصال بأسباب رجل يصفو بوده إليها وتأنس هى منه هذا الميل ؟ . يخفق قلبها على الرغم منها . . وتلقى نفسها معنية بهذا الرجل الذى يوليها العناية التى حرمتها فى حياتها ، ويظهر لها الحب الذى لا يستطيع أن يظهره لها أخوها

أو أبوها لأنه من نوع آخر ، ولا يغنى عنه حب الأم والأخت ومن إليهما . . وتشغل خواطرها بالتفكير فى هذا الانسان الذى لا يفتأ ينظر إليها وفى عينيه نور الحب . . . وقد يكون كاذباً أو مخادعاً ، ولكنها لا تستطيع أن تعرف هذا لأنها غريرة لم تجرب الناس ولم تعرف الحياة إلا من نافذة بيتها . . . فتراها تبدو فى حفل من الزينة — ولم تكن تعنى بأمر زينتها كل هذه العناية — وتكون واقفة مع صاحبة لها تحدثها فتتحول عينها إليك وتخالسك النظر ... ويكون الكلام عادياً جداً لا يستدعى كل هذه الحركة ولا يستوجب هذه الضحكات المتوالية التى يميل لها الجسم كل مميل ... ولا تزال وهى تتكلم تهز رأسها وتسوى شعرها بيديها وتخرج وتدخل ولا شىء هنالك تدخل له ، ولكنه الشعور المتقد القلق ، والعواطف المشبوبة لأنها محبوسة تريد أن تنفجر من طول الكبت ... وهذا الدبوس الذى تشيله وتحطه لم يكن قلقاً فى موضعه من شعرها ولكن نفسها هى القلقة ، فيدها لا تهدأ ولا تسكن ولا تستطيع أن تكف عن الحركة ... وهذا الثوب الجديد الذى لم يفصل والذى تنشره فى الشرفة لزائرتها كان فى وسعها أن تعرضه عليها فى الغرفة ولكنها حركة عصبية تشى بالاضطراب النفسى ... وهذا النبات الذى اتصل بعضه ببعض على جانب الشرفة والذى يحجب من فيها عن عيون الجيران هل تظن أنه يحتاج إلى تسوية ؟ . لا . ولكن يدها مع ذلك لا تزال وأنت ناظر إليها تعبث بأوراقه النضيرة وقد تنظر إليك عن عرض وهى تفعل ذلك ... ولا تحسب أنها تفازلك فما تفعل شيئاً من ذلك ولكنه لا يسعها إلا أن تنظر إليك خلسة من حين إلى حين ، لأنه يسرها أن تراك ناظراً إليها وأن تعلم أنك مشغول بها حتى ولو أبدت الضجر من ذلك أحياناً . وإذا لم ينظر الرجل إلى المرأة فماذا يكون مصيرها ؟ . وما ذا عسى أن تصنع بنفسها ! . . وهى تغيب عنك وتحتجب — يوماً كاملاً أو ساعات — لظنها أن احتجابها يسعر النار التى فى صدرك ويرقى بألسنة اللهيب الى السماء . وهى تقضى على نفسها بهذا الاحتجاب وخواطرها كلها معك وان كانت تكلم أمها وأخاها وأباها كأنما خلت بها اللهيات الحاضرة التافهة عن كل ذكر لك . وليست المرأة بشىء إذا لم تكن قادرة على هذه المخادعة البريئة . والشرفة الأخرى ليست فى جانب غير هذا من البيت ، بل الاثنتان على صف واحد ، وليست إحداهما بأوسع أو آنق أو أحلى ، ولكنها تنتقل من هذه الى تلك لغير حكمة ظاهرة ، إلا أنها تريد أن تفهمك أنها لا تحب أن تراها ولا ترتاح لطول تحديقك فيها . . وليس هذا بصحيح ، ولكن المرأة هكذا أبدا . . . وتجلس فى الشرفة على الكرسى وفى يدها الكتاب وتتعمد أن توليك ظهرها وأن تجعل وجهها الى ناحية أخرى لتوهمك أنها غير راغبة فيما ترميها به من النظرات . . . ولا تقرأ شيئاً لأنها لا تقلب الصفحة إذ كان عقلها مشغولاً بك وهل لا تزال واقفاً ؟ . وهل تراك تنظر الى غيرها ؟ . وهل أنت ضاحك أو عابس ؟ . وما ذا كان وقع هذا الاعراض فى نفسك ؟ . هل آلمك جداً ؟ . هل أغضبك ؟ . أو زادك تعلقاً بها واقبالاً عليها ؟ . وتمد ساقها وتهزها لتلفت نظرك الى جمالها . وتنهض واقفة وتنحنى لتضع الكتاب على الكرسى ثم تخرج من الشرفة — لا لحاجة — بل لتريك خط ظهرها وبراعته وفتنته . . . وترفع رأسها قليلاً — وعلى مهل — حتى تحاذى عينها حافة الشرفة لتنظر أباق أنت أم مللت وذهبت ؟ ؟ . وتراك تهيأ للخروج فتختفى وعينها عليك من وراء الأستار — وفى ظنها أنك لا تفطن الى ذلك — فاذا انحدرت الى الشارع برزت فى الشرفة لتلقى عليك نظرة أخيرة . . . ويجىء الليل فتجلس فى الظلام وأنت فى النور لتراك ولا تراها . . وإذا جاء وقت النوم أغلقت باب الشرفة بعنف لا تدعو إليه أى ضرورة سوى أنها تريد أن تؤذنك بذلك

هذه حياة المسكينة وهذا ما يحوجها اليه ما هى فيه من العزلة والحرمان الدائم . وأى قدرة لمثلها أو عسر يمكن أن يكون فيها الا عسر السجن . . . كان الله فى عونها فانى أرانى أعطف عليها وأرثى لها فى محنتها هذه أكثر مما أرانى أحبها . وسلام عليها

ابراهيم عبد القادر المازنى

مجموعات الرسالة

ثمن مجموعة السنة الأولى مجلدة ٥٠ قرشاً مصرياً عدا أجرة البريد
ثمن مجموعة السنة الثانية (فى مجلدين) ٧٠ قرشاً عدا أجرة البريد
ثمن مجموعة السنة الثالثة (فى مجلدين) ٧٠ قرشاً عدا أجرة البريد
وأجرة البريد عن كل مجلد فى الخارج ١٥ قرشاً